للنحو والتاريخ

٣ ـ عبد القادر حمزة باشا

كلمة أخيرة عنه

[ومن « قومية » بحثه وراء « الحقيقة » في التاريخ المصري القديم]

للأستاذ محمد السوادي

كلمة ١١

دلت في مقالي الذي تفضلت « الرسالة » الغراء بنشره في (العدد ٤١٩) على أن عبد القادر حمزة إنما اتجه إلى دراسة « التاريخ المصري القديم » بحثاً وراء « الحقيقة » في ذاتها ولذاتها ، وأن هذه الدراسة ملأته ـ كمصري ـ زهواً بعبقريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً « بالقومية » التي حالفته في بحثه ، وأن عبد القادر حمزة مؤلف كتاب « على هامش التاريخ المصري القديم » قرن بين « الحقيقة » و « القومية » ، وإنما رأى في الاهتداء إلى « الحقيقة » إثباتاً « للقومية » فضل

وأثبت في مقالي للملحوظات الست ـ أو الحقائق المريرة ـ التي وضعها الرجل أمامه وخرج منها بأن « الحقيقة » ضائعة فيجب إيجادها ، و « القومية » ضيعة فيجب إنماؤها . أما « الحقيقة » فهي أن مدنية مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب « على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة » ، بل قامت كما دلل هو « على أساس علمي وخلق صحيح »

هذه هي خلاصة المقال الذي اختتمته بوعد مني لك أن ألقى بك لندرس معاً « بالتطبيق » الطريق التي سلكها في البحث ، والنتائج التي خرج بها ، و « النظافة » العلمية التي حالفته في هذا البحث

وأحب أن أضيف إلى ذلك الوعد « كلمة » لا بد منها كما يقولون ، أحب أن أقول إن هذا « التطبيق » بالمعنى الذي أفهمه من هذه الكلمة يسوقنا إلى دراسة مستفيضة بدا لي أن أرجئها إلى وقت يحفظ على « كرامتي » و « براءتي » بعد إذ تراءى لي أن بعض خصوم البراءة ، يزعمون أني إنما أنشر هذه الفصول ابتغاء مرضاة جريدة « البلاغ » التي أعمل فيها . وليس يسوءني أن تنشط الشياطين السود في أشباه الرجال لتسرد على مسمعي قائمة طويلة من الإفك ، ما دمت مطمئناً إلى قدرة القراء على التفريق بين الصدق والكذب في أي اتهام يوجه إلي ؛ ولكني إزاء اتهام كهذا لا أملك له دفعاً ، وفي مجتمع تقوم الصلات بين جمهرة بنيه على النفاق ، ويجد مثل هذا الاتهام سبيله إلى بعض الأذهان ، لا يسعني إلا أن أجعل من هذا المقال خاتمة للبحث . ويعزز هذا العزم مني سبب آخر بل أسباب أخر . . . ليس من اللياقة أن أميط اللثام عنها اليوم ؛ فإلى غد . . . إلى الغد المجهول الذي لا أدري متى يعلم ! ! وفيه — إن علم — أقوم ببعض ما يجب على لهذا العظيم الراحل

تاريخ ولكن

ولا أعد الآن إلى « تطبيق » متواضع محدود لناحية واحدة يصح الوقوف عندها

أدرك الرجل أنه مقدم على « تاريخ » ، وهو لم يكن يوماً « مؤرخاً » ولكن الدراسات التي قام بها أهلته لهذا الإقدام ، بل أثارت له السبيل إلى تصويب أخطاء المؤرخين العالميين ، وإلى تفنيد الأباطيل التي أذاعها المغرضون منهم ؛ فلماذا يصنع ؟

رأى ـ كما يرى كل عالم زاد علمه فزاد تواضعه ـ أن يصمي جهوده « على هامش التاريخ المصري القديم » ، فلما تمت له التسمية واطمأن إليها وأنس بها ، وصارح الأخصاء من الأصدقاء بهذا الشعور ، ونشر فصولاً ضمن هذا « النطاق الحر » ، كف فجأة عن مواصلة النشر ، وعاد يواصل الدراسة في صمت ، لأن « فكرة جديدة » نبتت في ذهنه وحددت له « اتجاهاً جديداً » في بحثه . فما هو هذا الاتجاه ؟

هو أن يجمع بين « الحقيقة » كمؤرخ و « القومية في البحث » كمصري ، ما دام المجال قد انفسح أمامه ، ولم يعد مقيداً بالتاريخ

فى صميمه ، بعد إذ أذاع أن كل جهوده ستكون وقفات « على هامش هذا التاريخ » ، فضلاً عن أن هذا اللون من البحث يحمل طابع الأخذ والرد ، ويحكم المنطق فى رقاب الوقائع ، ويخرج من المقدمات بنتائج ، فيجىء البحث أدنى إلى العراك العميق الهادئ ... عليه من طلاوة المنطق طابع ، وله من ذات الحقيقة جمال ... فيدرسه رجال « الحقيقة » على أنه « تاريخ » ، ويدرسه أبناء الجيل بنفس الروح الذى يطالعون به جدلاً بديعاً أو قصة رائعة ... فتنساب إلى أذهانهم حقائق مجلوة من تاريخ بلادهم ، ويتغلغل إلى أعماقهم حب لهذا التاريخ يندو على الأيام إعزازاً لهذا البلد ، فتزكوا الوطنية فيهم ، ويتمو الشعور بحق بلادهم عليهم ، فيصبح هذا النتاج « إنسانياً » من حيث « الحقيقة » و « وطنياً » من حيث « قومية البحث » وراء هذه « الحقيقة »

كانت هذه هى « الفكرة » التى حددت له « الاتجاه » ، فاطمأن إلى أن للبحث هدفاً يهون دونه كل شقاء ، وكانت هذه هى « الفكرة » التى استطعت أن أخرج بها من أحاديثى الكثيرة معه ، وإن كنت — لوجه الحق — أقرر أنه لم يحددها بهذا الوضوح ، لأنه كان يأنف أن يشعرك بأنه يقصد إلى مدح نفسه أو الثناء على جهده

الجوهر :

اختمرت « الفكرة » إذن وتحدد « الهدف » ، فكيف يدرك المؤلف هدفه ، أو ما هى الوسائل التى تمكن له من إدراكه ؟

لم يصارحنى بها ، ولكن كتابه فى جزأيه — ما طبع منها وما هو تحت الطبع — ناطق بهذه الوسائل التى أستطيع أن ألخصها لك فيما يأتى :

أولاً : حدد مدار البحث كما قلت لك بالتدليل على أن المدنية المصرية قامت على أساس علمى وخلق صحيح ، وحدد الحقيقة التى يجب أن يثبتها التدليل على أن المدنية الحديثة وما سبقها من مختلف المدنيات ، وفى طليعتها المدنية اليونانية ، إنما هى « سير مطرد » لمدنية مصر وأقباس مستمدة من نهضة المصريين ؛ ثم حدد النتيجة التى يجب أن يبلغها التدليل على أن هذا العالم القائم الذى يتطاحن بسلاح التضليل ، وتنيه فيه العنصرية الآرية من ناحية ، والديمقراطية السياسية من ناحية أخرى ، إنما يغفل عمداً الحقيقة الكبرى ، وهى أن لا آرية هنا ولا ديمقراطية ، وإنما هناك « مصرية » أمدتهم جميعاً بالفضل الذى يتنازعونه ، وإذا صح أن للأصيل فضل الباهاة ، فمن حقنا وحدنا أن نباهى بمصريتنا .

ثانياً : آثر عبد القادر حمزة أن يختار من بين موضوعات هذا التاريخ القديم موضوعات بالذات ، يركز فيها الجهود ويستخلص منها النتائج كما سيجىء فى التطبيق

رابعاً : رأى أن يكون نهجه علمياً إزاء المؤرخين ، ومنطقياً إزاء القراء ، ففى النهج يذكر الرواية التى ساقها المؤرخون الأجانب بأسانيدها ، ثم يذكر المراجع ويحدد الكتاب ويعين الصفحات ، ثم يعود إلى التفنيد ويضيف إلى الأسانيد كل سند جديد وفقت إليه الكشوف ، ثم يخرج بالنتيجة وضاحة الجبين لا سبيل معها إلى دعاة الشك بعد أن انبلج منها صبح اليقين ...

أمثلة للتطبيق

وإليك الآن بعض الأمثلة التى تحقق لك « التطبيق المتواضع » الذى وعدت به :

أراد أن يخلص ذهن قرائه مما علق بها أيام الدراسة من خرافات اختلقها المؤرخون الأجانب فاعترفنا بها كحقائق وحشونا بها البرامج فذكر قارئه بادئ ذى بدء بأن الكتابات التى تركها لنا الكتاب اليونانيون والرومانيون كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب أى مدى أربعة عشر قرناً ؛ وهؤلاء الكتاب الذين زاروا مصر وكتبوا عنها فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة ، مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه ، أو لأنهم يريدون أن يثيروا دهشة قرائهم بما يقصونه من المبالغات

وهذا كلام يفهمه القارئ الحديث الذى كان يرى الشركات الأمريكية والأوربية تجىء إلى مصر قبل الحرب فلا تلتقط

لأفلامها غير صور الطبقات الدنيا فى حى (زينهم) و (عشش الترجمان) بل تستأجر من الدهماء فقراء يطلب إليهم التزيى بالطراطير وما إليها لتوهم الشركات شعوب الغرب بأن مصر لا تزال تتخبط فى مثل هذه الأزياء

يفهم القارىء الحديث هـذا النحو من التملق فهل قنع عبد القادر حمزة بهذا التدليل وترك المؤرخ أو المحقق يطالبه بالدليل؟ كلا. وإنما تناول أقوال شيخ أولئك الكتاب والمؤرخين — هيرودوت — ونقلها بأمانة، ثم دلل على فسادها. وحسبك منها أن أذكر لك بعضها فى سطور :

أبان لك المؤلف أن هيرودوت نقل عن موظف مصرى فى معبد « النيوديت » فى صا الحجر أن النيل يولد بين « سين » و « ابلفنتين » — وهذه كانت تجاور أسوان — وأن شطراً من مائه يجرى إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة، وأن هذا الزعم كان يعتقده المصريون، ثم دلل عبد القادر على أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يثبتها هيرودوت فى كتابه بعد أن قال هو نفسه : « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هذا القول كان يمزح. » وقال المؤلف إن المصريين « الذين كانت سين وابلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجرى شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة، بل يأتى من النوبة جارياً إلى مصر. وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة وإلى ما وراء النوبة منذ الدولة القديمة ... فهم إذن ركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع ... فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند أسوان هو ادعاء زور، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصرى هو اعتماد على سند ساقط »

ثم لم يشأ المؤلف أن يقول له قائل : « ولمـاذا تتجاهل أن بعض المؤرخين تأولوا هذه الرواية، فقالوا إنها كانت اعتقاداً للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة، ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع » . بل أثبت عبد القادر هذا التأول، ورد عليه بأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر إلا فى مختتم الحضارة المصرية. أى بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة فى عصر الدولة القديمة. فالموظف الذى نقل عنه لا يمكن أن يكون إلا جاهلاً أو مخرفاً، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص

ثم نقل المؤلف عن هيرودوت قوله إنه وصل فى تجواله إلى بلفنتين وقوله : « فما أكتبه وصفاً لمصر إلى هـذه المدينة رأيته بعينى » ثم قطع عبد القادر بأن هيرودوت كاذب » لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان متعارضان أحدهما يتجه إلى مصر والثانى إلى النوبة »

ولم يشأ المؤلف أن يدع هيرودوت « الكذاب » فى هذه الرواية كذاباً على طول الخط وبسوء نية، بل راح يلتمس له المعاذير ويقلب الأمر على مختلف وجوهه، حتى اهتدى — أى المؤلف — إلى الأناشيد التى وجدت منقوشة على الأهرام موجهة إلى النيل وفيها :

« لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود. إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » . ورجح عبد القادر أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت من هذا النشيد، لأن الصخرتين قائمتان عند ابلفنتين. ورجح أن يكون غرض الشاعر أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين؛ فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها وهو تعبير شعرى جائز، والمصريون كانوا مشغوفين بالمجاز، أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازياً فهو على كل حال قال بأن النيل يظهر من بين صخرتين، ولم يقل إن شطراً منه يجرى إلى مصر وشطراً إلى النوبة. والعلماء اتفقوا على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ يوم كانت المدنية المصرية تحبو كالطفل

ملحوظات

هذه خلاصة متواضعة لنقطة تافهة وردت عرضاً ضمن كتاب هيرودوت، فما بالك إذا عدت إليها فى الكتاب وقرأت أسانيدها ولمست مدى الاهتمام الذى أخذها به المؤلف ليقضى عليها ؟. ثم ما بالك حين تتبعه فى تناوله الحقائق الكبرى. ألم تلاحظ معى أن المؤلف « ضمير المؤرخ » يمشى جنباً إلى جنب مع « حماسة

القومية » فى العود عن المصرية ، حتى لقد راح يلتمس العذر للمؤرخ اليونانى إرضاء للضمير العلمى ، فإذا وجد له سنداً خيل إليه أنه راجع أثبته ؛ فإذا أثبت التفنيد أنه مجروح قضى عليه ثم ترك لقارئه الحكم على رواية هيرودوت

ثم ما قيمة مسألة تافهة كهذه يعنى بها هذه العناية ؟

القيمة أنك — بها وبأخواتها التى تلتها — تعرف أقوال هؤلاء المؤرخين وقيمتها ، فتطهر ذهنك من الإيمان الخاطئ بالتاريخ الذى درسته تلميذاً وشاباً وكهلاً وشيخاً لتستقبل معه بحوثه الكبرى وراء الحقيقة الخاصة بالتاريخ المصرى القديم

ومن هذا « التطبيق المتواضع » ترى أن الرجل لم يكن يثبت حرفاً — بله البحث — من غير أن يرمى به إلى نتيجة . وقد ترى الكلمة مثبتة فى مقدمة الكتاب للعودة إليها فى خاتمته

ميزة

وكان للمؤلف ضمن الميزات ميزة لا يصح إغفالها على الرغم من ضيق النطاق واعتزامى اختتام البحوث ، ميزة العودة إلى الحق شأن العالم الثبت ، وميزة مسايرة أحدث البحوث وآخر الكشوف بحيث إذا عثر على كشف يصوب نتيجة بلغها قبلاً عاد فصارحك بخطأه وأرشدك إلى الكشف الذى هداه إلى الصواب

وفى الجزء الأول مجالان للتطبيق أرجو أن تعود إليهما : أحدهما فى صفحة ٢٢٣ تحت عنوان « ملحق التقويم المصرى » ضمنه نصوصاً اهتدى بعد أن فرغ من طبع الكتاب إلى أنها عثر عليها أخيراً ودلت على أن الكهنة ورجال الحكومة كانوا يدونون أيام المواسم الزراعية طبقاً للتقويم وأمام كل واحد منها اليوم المعادل له طبقاً لدورة الشعرى اليمانية : « الامر الكانوبى » الذى أصدره بطليموس الثالث بتعديل التقويم على أساس إضافة يوم كل أربع سنوات إلى الخمسة الأيام الإضافية

والآخر فى ص ٢٢٧ وهو تصحيح خطأ وقع فيه فى قوله : إن من المباحث التى بحثها برستيد أنه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ متراً أو ٣٠ فوجد أن الإنسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأوانى والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت . فقال عبد القادر إن هنا اسماً سقط وكان يجب أن يذكر لأن صاحبه هو الذى حفر عند مدخل الدلتا وهو هو شوينفورت ، وأما برستيد فقد درس نتائج هذا الحفر وحسب طبقات الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة فوجد أن الإنسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت

كلمة أخيرة

ها هو ذا « التطبيق المتواضع » انصب على موضوع واحد ومنه رأيت أن « التطبيق المرامى المشبع » يقتضى كتاباً ضخما أو فصولاً يستغرق نشرها عامين ، فاعذرنى — إزاء القيل والقال الذى ألمت إليه — إذا أنا أعفيت نفسى من هذه المهمة المضنية التى أخذت بها نفسى عن طواعية ولوجه الوفاء ، وأرجأتها إلى وقت يحفظ على الكرامة ولا يدع سبيلاً للمطاعن الرخيصة فى العمل المحمود

وقد ألتقى بك بين الحين والحين ؛ على صفحات (الرسالة) الغراء ولكن فى أحاديث أدبية أخرى بعد أن أثارت بحوثى الأخيرة شهية التحدث إليك . فإلى لقاء قريب

محمد السوادى

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسى

إخصائى الحالات النفسية

مؤلف يبحث على ضوء العلم الحديث فيما هى فوائد علم الكف . الكف والمؤثرات النفسية . كيف تكشف خطوط الكف عن استعدادات المرء التى تمكنه من النجاح فى الحياة

قيمة الاشتراك قبل الطبع ٣٠ قرشاً وثمنه بعد الطبع ٥٠ قرشاً وقد مد أجل الاشتراك إلى ١٥ سبتمبر المقبل كرغبة الكثيرين ، وترسل الاشتراكات إلى مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ، أو لمجلة الرسالة ٨١ ش السلطان حسين ، أو للمؤلف ٣٣ ش الملكة فريدة .